المحاضرة السابعة- مقرر: الأنثروبولوجيا الثقافية ف٢- السنة الأولى- قسم علم الاجتماع

د. أميرة عرقسوسي

عنوان المحاضرة: الأدوات (الوسائل) البحثية في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية (١)

الأداة: تستلزم عملية جمع البيانات الميدانية من الباحث تحديد الأداة/ الأدوات المناسبة لجمع هذه البيانات، حيث بإمكان الباحث اعتماد أداة أو أكثر في عملية جمع البيانات الميدانية، ويتم تحديد هذه الأداة/ الأدوات المناسبة بناء على طبيعة الموضوع المدروس والبيانات المراد الحصول عليها.

ومن الأدوات البحثية التي تعتمد في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية، نذكر الآتي:

أولاً- الملاحظة بالمشاركة:

الملاحظة: من أساليب التقويم وجمع البيانات، حيث يمكن من خلال استخدامها – وفق الضوابط المحددة لها - الحصول على مجموعة من المعلومات والبيانات التي يصعب الحصول عليها من خلال استخدام أسلوب آخر . والملاحظة هي المشاهدة والمتابعة المرئية الدقيقة للسلوك أو الظاهرة أثناء الأداء الفعلي في المواقف الطبيعية، وتسجيل ما يراه الملاحِظ وفق نظام دقيق ومحدد يُعبر عن السلوك أو الظاهرة المدروسة.

وللملاحظة أنواع نذكر منها:

- الملاحظة العفوية.
- الملاحظة العلمية.
- الملاحظة الحقلية.
- الملاحظة المخبرية.
- الملاحظة بالمشاركة.
- الملاحظة من دون مشاركة.

وفيما يتعلق بالملاحظة بالمشاركة فإن بداياتها تنسب إلى المفكر البولوني

Bronisław Kasper Malinowski

الذي اشتهر بتنظيم ممارسة الأنثروبولوجيا الميدانية انطلاقا من قناعاته بأن عمل الأنثروبولوجي يجب أن يركز على الواقع المحلي للمجتمع المدروس و خصوصياته الثقافية بدل الاكتفاء بأعمال الرحالة والفلاسفة وغيرهم .

وتقتضي أداة الملاحظة بالمشاركة إقامة الباحث بين أفراد المجتمع المدروس ومعايشة حياتهم اليومية عن كثب، الأمر الذي يتطلب من الباحث تعلم لغة أفراد المجتمع المدروس لكي يتواصل معهم بسهولة ويسر ويتضح له عادات وتقاليد هذا المجتمع، وبذلك فقط يستطيع أن يجمع المعطيات عبر ملاحظة الممارسات بشكل مباشر.

وفي مسألة اللغة فقد قضى (مالينوفسكي) رائد العمل الحقلي في مجال الأنثروبولوجيا ما يقارب من عام كامل لتعلم لغة المجتمع الذي أراد دراسته والمتمثل بمجتمع ((جزر التربرياند)).

ولعل هناك أسباب متعددة تدفع الباحث إلى استخدامه لأداة الملاحظة بالمشاركة والتي اعتمدت عليها الأنثروبولوجيا في بداية تاريخها. ومن هذه الأسباب نذكر الآتي:

- تمكننا من جمع قدر كبير من البيانات والمعلومات عن عادات وتقاليد المجتمع، والتي لا يمكن الحصول عليها من خلال أدوات أخرى. أي تمكننا من فهم ثقافة المجتمع المدروس.
- تسهم بشكل كبير من التخفيف من حدة التفاعل مع المبحوثين.
- تساعد على تصميم أدوات بحثية أخرى كالاستبانة والمقاييس.
- بينت لنا العديد من الدراسات انه تم كشف معلومات رئيسية وهامة عن حياة مجتمعات وطرق حياتهم من خلال استخدام أداة الملاحظة بالمشاركة.

ولابد من الإشارة إلى أنه يجب على الباحث أن يتجنب اتباع السلوكيات التي تعلمها في مجتمعه والتي قد تختلف عن سلوكيات أفراد المجتمع الذي يدرسه، كما عليه عدم انتقاد سلوكيات هؤلاء الأفراد أو محاولة تغيير عاداتهم وتقاليدهم وأنماط سلوكهم بل لابد أن يقابلهم ويتحدث معهم وكأنه فرد منهم. كما على الباحث مشاركتهم حفلاتهم وطعامهم وارتداء ملابسهم وعدم الاستنكار مما قد يرى.

وبقدر ما يستطيع الباحث أن يكتسب ثقة أفراد المجتمع الذي يدرسه، كلما كان قادراً على جمع المعلومات المهمة عن طبيعة ثقافة هذا المجتمع ونظمه الاجتماعية المتعددة.

ومن أهم الإجراءات التي يجب على الباحث اتباعها أثناء تطبيق أداة الملاحظة بالمشاركة، هي عملية كتابة ((التقارير الفورية)) عن كل صغيرة وكبيرة تقابله في مجتمع الدراسة، سواء في أسلوب المعيشة أو نمط السلوك أو شكل الحكم أو ظواهر المعتقد أو الاقتصاد أو طريقة التفكير...إلخ. هذه التقارير الفورية تعكس الملاحظات اليومية للباحث والتي يراها في المجتمع المدروس.

وتعود أهمية تدوين هذه الملاحظات اليومية إلى أنها تقودنا في النهاية إلى فهم هذا المجتمع فهماً شاملاً.

ثانياً- الإخباريين:

يمكن القول بأنها المقابلة غير الموجهة التي تتم مع ما يسمى بالإخباري الذي هو ذلك الشخص الذي يقوم بتزويد الباحث بالمعلومات المطلوبة عن المجتمع المدروس، ولديه من المعلومات التي يمكن أن تحقق هدف الدراسة وتسهم في اتجاهها، حيث تتم أخذ المعلومات من الإخباري عن طريق المقابلة غير الموجهة في كثير من الأحيان.

أما بالنسبة لنوعية الإخباريين الذين يجب على الباحث أن يختارهم، فهم دائماً ما يكونون من ذوي المكانة الاجتماعية أو السياسية أو الدينية في المجتمع المدروس، كما يجب أن يكونوا من كبار السن، وهذا معناه ان يكون الإخباري من الأشخاص الذين يستفيد الباحث منهم في جمع المعلومات الهامة عن البناء الثقافي والاجتماعي لمجتمع الدراسة.

ووفقاً لهذه الأداة يتم اختيار الباحث لمجموعة من أفراد المجتمع المدروس وإجراء مقابلات مطولة معهم، ويقوم بتوجيه أسئلة متنوعة لهؤلاء الأفراد تاركاً الفرصة لهم ليقدموا الإجابة المسترسلة عن تلك الأسئلة، حيث لا يتدخل الباحث مطلقاً في توجيه إجابات الإخباريين، بمعنى آخر: لا يتدخل الباحث في توجيه إجاباتهم للغايات التي هو يبحث عنها.

فمثلاً قد يسأل الباحث أحد الإخباريين عن مفهوم الزواج بصورة عامة، ثم يترك للإخباري الاسترسال في الحديث عن الزواج ومفاهيمه وأهميته في المجتمع الذي ينتمي إليه.

ويمكن وصف المقابلة غير الموجهة للإخباريين على أنها نوع من الحديث العام عن الواهر الاجتماعية والسلوكيات العامة المتواجدة في المجتمع، إلا ان ميزة هذا الحديث العام بأنه لا يكون بين طرفيين متساويين، بل إنه بين طرف يعرف ويفهم ما يدور في المجتمع (الإخباري)، وطرف محايد يحاول من خلال عملية السؤال والاستماع أن يفهم ما يدور في هذا المجتمع (الباحث).

ويجب على الباحث أن يكون على استعداد تام أثناء المقابلة لكي تتسنى له تسجيل وتدوين المعلومات التي يذكرها له الإخباري. ومن أهم الوسائل التي يتم استخدامها لتدوين تلك المعلومات هي آلة التسجيل والتي تضمن حفظ المعلومات التي تم الحصول عليها من الإخباري.

ثالثاُ- المقابلة:

المقابلة هي محادثة تتم بين الباحث والمبحوث أو المبحوثين في زمان ومكان معينين، بهدف الحصول على المعلومات من خلال التبادل اللفظي الحاصل بين طرفي المقابلة، ومن خلال ملاحظات الباحث لانفعالات المبحوث وحركاته التعبيرية يمكن أن يستشف الباحث معطيات قد لا يفصح عنها المبحوث باستجابته اللفظية.

وللمقابلة أنواع نذكر منها:

- المقابلة الفردية.

- المقابلة الثنائية.

- المقابلة الجماعية.

- المقابلة الموجهة.

- المقابلة غير الموجهة...إلخ.

وقد تمت الإشارة مسبقاً إلى ان الباحث الأنثروبولوجي يعتمد على الإخباريين عن طريق مقابلتهم، ففي كثير من الأحيان يلجأ الباحث إلى استخدام أسلوب المقابلة مع أفراد المجتمع. وقد يستخدم الباحث الأنثروبولوجي أداة المقابلة الموجهة مع الإخباريين، كذلك قد يستخدم المقابلة غير الموجهة.

وإذا كانت المقابلة غير الموجهة هي الطريقة التي تتم تلقائياً بين الباحث وبعض أفراد المجتمع المبحوث الذين تترك لهم فرصة الإجابة المسترسلة على مختلف

الأسئلة، فإن طريقة المقابلة الموجهة تتمثل في إعداد استمارة عبارة عن مجموعة من الأسئلة تتم صياغتها بدقة حول موضوع البحث المراد دراسته، بحيث تشتمل على الإجابات المحتملة بطريقة تسمح للمبحوث الإجابة عن الأسئلة بسرعة ووضوح، ثم تفرغ هذه الإجابات ضمن جداول.

وعلى الباحث أن يقرأ الأسئلة أمام الشخص المراد مقابلته ثم يسجل إجابته في الاستمارة، وينبغي أن تقرأ الأسئلة من قبل الباحث بطريقة محايدة بحيث لا تؤثر على المستمع.

وتبرز أهمية المقابلة من حيث أنها قادرة على فحص التأثير الانفعالي للمبحوث كما ذكر أعلاه، والكشف عن تعبيراته وكذلك يمكن من خلالها أن تنشأ علاقة ود ومودة بين الباحث والمبحوث، بالإضافة إلى أنها قادرة على الكشف عن صدق المعلومات التي يمكن الحصول على من قبل المبحوث، ولاشك أن ذلك يرتبط بشكل كبير بمهارة الباحث وقدراته.

وكنموذج للأسئلة التي يتم طرحها في المقابلة الموجهة نذكر المثال الآتي:

لنفترض أن الباحث يريد أن يعرف طبيعة العلاقة بين الزوجين في المجتمع المدروس، من الممكن تحقيق هذا الهدف مثلاً من خلال طرح السؤال التالي: هل تشارك زوجتك في اتخاذ القرارات ، ويتم وضع عدة إجابات مثل: نعم لا أحياناً، ويترك للمبحوث حرية اختيار أحد هذه الاحتمالات. وهذا النمط من الأسئلة يسمى بالأسئلة المغلقة، لكن يمكن أن تتضمن المقابلة الموجهة النمط الثاني من الأسئلة وهو الأسئلة المفتوحة هي التي تسمح للمبحوث أن يتحدث ويعبر عن رأيه، مثل سؤاله عن رأيه في قضية ما أو اقتراحه في مسألة محددة وغيرها.

رابعاً- تاريخ الحياة:

كثيراً ما يستخدم الأنثروبولوجيين طريقة تاريخ الحياة أثناء دراستهم الميدانية بقصد جمع العديد من المعلومات الأثنوغرافية عن المجتمع المدروس. وهي عبار عن عرض للسيرة الذاتية وتاريخ الحياة.

وتقوم هذه الطريقة على اختيار الباحث لشخصية اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية او دينية، ويطلب منه أن يقص عليه سيرة حياته وما صادفها من أحداث منذ الصغر وحتى تاريخ اللحظة التي يحادثه فيها. وغاية الباحث هنا ليست قصة حياة الفرد كما تروى، بل ما يهمه هنا هو استقراء العلاقة الاجتماعية والأحداث التاريخية والعناصر الثقافية والمعتقدات الدينية التي تشكل المجتمع وتحدد تطوره.

وينقسم تاريخ الحياة إلى نوعين:

١- أوتوبيوجرافي: وهو الذي يعتمد على سرد المبحوث لسيرته الذاتية وحياته بنفسه دون تدخل الباحث.
٢- البيوجرافي: وهنا يتدخل الباحث في توجيه مسار حديث المبحوث وتحديد مسار حياته بما يرتبط بموضوع بحثه وما يريد الباحث الوصول إليه.

وحتى يتمكن الباحث من التحقق من صحة المعلومات التي يذكرها شخص ما في سيرته الذاتية، فإن عليه أيضاً ان يعتمد على سير ذاتية لأشخاص آخرين، ومن ثم استخدام طريقة المقارنة فيما بين هذه السير الذاتية للوصول إلى معلومات لها صفة العمومية والموضوعية، حيث من خلال المقارنة يمكن تقديم وصف عام للثقافة، وتحديد المعلومات ومدى دقتها.

خامساً- استخدام الوثائق

كذلك يعتمد الباحث الأنثروبولوجي في بحثه على استخدام الوثائق بهدف الحصول على المعلومات التي يحتاجها.

وهناك نوعان من الوثائق، هما:

- الوثائق المكتوبة: التي تتوافر في المجتمعات التي تعرف الكتابة والقراءة.

- الوثائق الشفهية: وهي التي يتم تناقلها عن طريق القصص والأشعار الشفاهية، ويتم الاعتماد عليها في المجتمعات الأمية.

وميزة هذين النوعين من الوثائق هو أنهما يمنحان الباحث العديد من المعلومات التي قد لا يستطيع جمعها عن طريق المقابلات، كما أن هذه الوثائق قد تنبه الباحث على جوانب اجتماعية أخرى لم يلحظها من قبل في مجتمع الدراسة.

سادساً- الطريقة الجينالوجية:

وتسمى أيضاً بطريقة تتبع النسب، حيث يحاول الباحث من خلالها الاعتماد على أحد الإخباريين في المجتمع وتتبع العلاقات الخاصة به مع سائر الأفراد المرتبطين به قرابياً ويقوم بتسجيل العديد من المعلومات عن هؤلاء من أسماء وتاريخ ميلاد وزواج وطلاق ووفاة وإقامة وروابط زواجية والعمل ...إلخ من البيانات التي ترتبط بموضوع الدراسة. ويقوم الباحث في النهاية بتفريغ هذه البيانات لفهم العلاقات السائدة في مجتمع الدراسة بعد أن يضعها بتخطيط هندسي حتى يفهم شبكة العلاقات السائدة، ويتم وفقاً لهذه الطريقة تضمين أكبر قدر من المعلومات عن الأفراد وتتبع

الأجيال، فيكشف الباحث من خلالها قضايا خاصة بالزواج والهجرة والعلاقات بين الأفراد ونظام الوراثة وغيرها من العلاقات.

مع أمنياتي بالتوفيق